التوظيف البيداغوجي للخيال الشعبي

الباحث عبد الله أيمن سعيد
كلية علوم التربية
جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب

الملخص:

تشكل ثقافة الشعوب بمختلف دلالتها مجالا خصبا للاستثمار البيداغوجي والتربوي، خاصة فيما يتعلق بالمناهج والبرامج وطرائق التدريس، لذلك فالحاجة في الفترة المعاصرة خاصة في ظل الرقمنة والذكاء الصناعي أصبحت ماسة إلى ضرورة الوعي بالهوية الثقافية للمتعلم، واستثمار هذه الهوية في العملية التربوية بمختلف أبعادها، ومن هنا يقدم هذا المقال باب للإعادة التفكير في استثمار الخيال الشعبي وما انتجه في المجال التربوي من طرق بيداغوجية ومفاهيم وتوظيف هذه المعطيات بطريقة تستجيب لمؤشرات قياس دينامية التربية، وهو ما يعزز الهوية الثقافية من جهة وما يثمن ثقافة الشعوب وانتاجها الابداعي من جهة أخرى، ويضم فرصة للقاء بين اليومي والعادي وبين المؤسساتي والمفكر فيه خدمة للتربية التي تؤسس فكر الفرد وتضمن بنية المجتمع وتساهم في تعزيز جسور الثقافة.

تقديم:

ترتبط الممارسة البيداغوجية في المجال التربوي بمجموعة من المعارف والنظريات والأسس والقواعد والمبادئ والمناهج التي تحدد نوعية التوجه التربوي، كما أنها تساعد على جعل الممارسة البيداغوجية أكثر فاعلية وناجعة، لذلك فإن المجال البيداغوجي وهو مجال رحب ومرن تتداخل فيه مختلف المعارف وكذا مختلف اجتهادات العقل البشري، ويستدل على ذلك بتاريخ الممارسة البيداغوجية الواسع، سواء البيداغوجيات المنظمة بالقواعد النظرية أو البيداغوجيات العفوية والتلقائية " الفطرية "، لكن بين المعنيين حد مشترك هو هاجس التربية، بحيث تحضر التربية كمشروع أسمى في تصور الفكر الإنساني سواء بالمعنى الفردي تربية الفرد والتنشئة بالمعنى الجماعي والمؤسساتي المسطر الأهداف والمحدد الغايات.

ولقد اتخذت البيداغوجيا كمعرفة تربوية لنفسها سبيلا متطور بحيث تعدد النظريات الفكرية والمعرفية التي قاربت معنى الممارسة البيداغوجية وتداخلات هذه الممارسة مع معارف أخرى كمجال العلوم الإنسانية بأصنافها الواسعة، لكن سؤال الغاية ظل دائما رهين الممارسة البيداغوجية سواء بالمعنى النظري أو التطبيقي، إذ يتبين في كثير من الأحيان داخل مجال الممارسة المنظمة بأن بعض الممارسات البيداغوجية في حاجة ماسة إلى وعي حقيقي بسؤال الغاية، وإلا فإن هذه الممارسة تتعرض لتقزيم وتصبح بنهج العفوية بعيدا عن أصل وغاية الممارسة التربوية، ومن هنا يتشكل سؤال الأصل من الفعل والفكر البيداغوجي ومن أين يستمد أصوله النظرية والفعلية؟

إن جل البيداغوجيات الحديثة والمعاصرة قائمة بكيفية منهجية على بنية البعد النظري أي الممارسة الفكرية، إذ تنهل جل البيداغوجيات من فلسفات خاصة حول الإنسان والمجتمع والتربية... وبهذا المعنى تصبح الممارسة البيداغوجية وكأنها في قطيعة مع الواقع وتتعالى أحيانا عنه أثناء الممارسة، وكأن ما هو ثقافي ينبغي أن يخضع لما هو تربوي، خاصة إذ ما أصررنا على فكرة أن غاية البيداغوجيا هي عقلنة الممارسة التربوية.

وقد تنبهت في الفترة المعاصرة انثروبولوجيا التربية إلى ضرورة إقحام الوعي الثقافي الشعبي في الممارسة التربوية، إذ ينبغي للممارسة التربوية البيداغوجية أن تنهل من المجال الثقافي والاجتماعي للفئة المستهدفة، قصد بناء وعي منسجم بين ما يقدمه المجتمع وما تسعى إليه التربية وما يشكل بنية ووحدة كلية، وربما في ذلك إعادة القراءة للثقافة الشعبية السائدة والبسيطة في نظر حامليها والتي تتخذ حسب تصور كلوك ليفي ستروس طابعا رمزيا خافت وبنيوي، ويرتبط الأمر بشكل دقيق بمجال الإبداع البيداغوجي الشعبي، فإذا كانت المعرفة البيداغوجية قائمة على استحضار الوعي النظري والتفكير المنهجي والممارسة الفعلية، فإن المجتمعات البشرية اجتهدت هي الأخرى داخل بنيتها الثقافية بتشكيل نوع من الوعي البيداغوجي الخاص بها والذي يتحدد في الخيال الشعبي الواسع والمرن والذي يشمل الرموز الثقافية والحكايات والأمثلة الشعبية والارشادات الاجتماعية، وإعادة التمثل أو بناء صورة نموذجية فعلية، إذ أن الملاحظ للممارسات الاجتماعية الثقافية يلاحظ حضور بكيفية دقيقة مناهج تربوية وممارسات بيداغوجية، ومن هنا قد يتسرب لنا سؤال الوعي التربوي الاجتماعي الذي يختار لذاته أنماط معينة من التفكير والتعبير، إن كل ثقافة حاملة لمشروع تربوي محدد لكنه مشروع ضمني خفي هادئ ومتوارث ضمن ما يسمى القيم والأخلاق والعادات وإعادة إنتاج التمثل.

كما أن المؤسسات ذات المشاريع التربوية حاملة هي الأخرى لغايات تربوية محددة، وبذلك يمكننا أن نتساءل منهجيا ومعرفيا عن إمكانية اقحام الثقافة الشعبية في الممارسة التربوية البيداغوجية خاصة فيما يتعلق بالقدرة الفكرية الجماعية الشعبية وهو ما عبرنا عليه بالخيال الشعبي.

فهل يمكن توظيف الثقافة أو المخيلة الشعبية بمضامينها المتعددة ضمن الممارسة البيداغوجية؟ هل نستطيع إقامة انسجام بين المفاهيم الثقافية الرمزية للتربية والمفاهيم النظرية الفعلية لها؟

هل يمكن للمؤسسات البيداغوجية الحديثة أن تنهل من رحم المجتمع ومن مجاله الثقافي لبناء مشاريعها التربوية؟ هل يمكن توظيف البنية الرمزية الشعبية للثقافة داخل مجال المناهج والبرامج والمشاريع التربوية؟ هل يشكل الخيال الشعبي مصدر من مصادر إغناء الرصيد والممارسة البيداغوجية داخل المؤسسات الرسمية والنظامية؟

1. دلالة الخيال الشعبي

إن تعريف الخيال الشعبي تتداخل فيه مجموعة من المحددات والمقومات منها ما يرتبط بمجال الادب ومنها ما يحيل على المجال الفني والابداعي، ومنها ما يرتبط بمجال الممارسة اليومية للعادات والتقاليد أي نمط العيش وطريقة التفاعل، والواقع أن الخيال الشعبي هو الاثير المغذي للثقافة الاجتماعية، لأن الثقافة تنبض بنبض البعد الشعبي بعيدا عن ما احتمله هذا اللفظ عبر مسار التاريخ من دلالات فكرية وسياسية، إن كل ما هو شعبي ببساطة هو كل ما هو شائع وقائم على مبدأ الفاعلية والاجتماعية كل ما يشكل هوية في بنية الفرد والجماعة.

وهو كل ما يسمح ببناء صورة ثقافية متكاملة المعالم حول الإنسان وفاعليته الاجتماعية، وقد ركزت مجموعة من الدراسات العلمية والتربوية على أهمية المخيلة في التعامل المعرفي والممارسة التربوية والبيداغوجية وفي مهارات الاكتساب والتعلم، لكن جل هذه الدراسات قد تمكنت من فهم المخيلة بالمعنى العلمي الدقيق المرتبط بالدماغ والفاعلية الفيزيولوجية للذات الإنسانية حيث يمكن تعزيز الأمر بجانب الافتراضات العلمية والطبية، كما أن الانثروبولوجيا الطبيعية ركزت على إدراك ماهية المخيلة وعلاقتها بالدماغ وبالبناء الثقافي والعلمي والسلوكيات الاجتماعية لحياة الإنسان، لكن في واقع الحال أن الخيال الذي نحن بصدد مقاربته هو نتاج ما هو جمعي بعيدا عن الفردانية والتفرد في الانتاج، حيث يصبح الخيال عملية انتاج اجتماعي مشترك تتفاعل فيه وتتداخل في بناءه مجموعة من المقومات والمحددات و التي تعكس صورة و وظيفة جماعية اجتماعية تسمح لشعبا كاملا بممارسة حق الإبداع والتواصل وبناء مشروع ثقافي وهوية خاصة.[1]

إن هذا الأمر يدفعنا لتساءل بعمق ما هو الخيال إذن؟

لقد اتخذ الخيال في المعنى العام المتداول مجموعة من الدلالات حيث إن الفكر البشري[2] قد اهتم بماهية هذا الخيال سواء ضمن وظائف التفكير البشري أو ضمن وظائف الدماغ التي تحولت عبر التاريخ إلى مبحث علمي خاص، بيد أن المحاولات الفلسفية الأولى ركزت على اعتبار الخيال جزءا من عملية التأمل والتفكير وصلة بين الفكرة والواقع الذي يمثل الذاكرة، كما كان ينظر إلى الخيال على أنه سمو بالنفس من العالم المادي نحو عالم خاص بالنفس الإنسانية.

لكن واقع الحال يجعل من الخيال مهارة بشرية أساسية تتطور وتتغير وتتغذى بثقافة المجتمع وبالتوجيهات والحاجات ومن هنا ظهر الوعي العلمي بتحديد ماهية الخيال بالوظائف التي يرتبط بها، وقد ركزت هذه الدراسات التي تدخل ضمن الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) على الشروحات الفكرية السابقة، خاصة أن الخيال قد نسبت له جل الأفعال و الأفهام إذ ينظر إليه على أنه ماهية العلم والادب، كمّا أنه وسيلة للإنسان لصانعة عالم جديد كما يتصوره ويطمح إليه، ويحضر الخيال ضمن مسارات التربية سواء من خلال الوظيفة التي يقوم بها أو من خلال التربية عليه، الخيال في مجال العلم ليس أكثر من مجرد فاعلية دماغية مرتبطة بتموج وحركات عصبية دقيقة داخل الكتلة الدماغية، لكن في مجال العيش الإنساني إن هذه الفاعلية هي الكامنة وراء الإنتاج الإنساني العلمي والفكري والفني، إن الخيال هو ما يشكل البداية الحقيقية للممارسة التفكير الميتافيزيقي عند الإنسان، خروج من الواقع المادي إلى عالم خاص من بنيات الفكر ثم استثمار هذه الأفكار في الواقع وتحويلها إلى مشاريع وأهداف وخطط واستراتيجيات[3].

بهذا المعنى يحضر الخيال كوظيفة إنسانية ملحة وكوسيلة تضمن صلة الوصل بين العالم المادي الصرف وبين عالم الفكر والافتراض، وهذا العالم يتخذ صفة فردية عندما نتحدث عن قدرة المخيلة الفردية كما أنه يتخذ صفة جماعية عندما نتحدث عن إنتاج خيالي جماعي

وهنا تتدخل عملية التنشئة والتربية.

إن الخيال الشعبي هو صيرورة من التراكم والإنتاج الذي يأخذ من الواقع وينفيه، يرتبط به تارة ويتعالى عنه تارة أخرى، فالإبداع الجماعي لا حدود له كما من صفاته الصلاحية الزمانية والمكانية وإعادة التمظهر بصفة ترتبط بوضعية العصر وبطبيعة من يفكر أو من يمارس هذا النشاط الإنتاجي وهذا ما يدل على المرونة الفكرية والدينامية الجماعية التي يحدثها هذا الخيال، بصرف النظر عن طبيعة الخيال إذ يتداخل في الإنتاج الاجتماعي الخيال الوهمي مع الخيال العلمي مع الخيال الإبداعي، تصطف هذه الأصناف لتنتج خيال شعبي جماعي[4]، يشكل جزء مهما من الثقافة ويغذى الهوية الجماعية، إن الخيال الشعبي إنتاج جماعي من حيث الصفة لكنه من خلال الملاحظة مقيد الموضوع والمجالات الذي لا تشكل المخيلة الجماعية إنتاجا في مختلف القضايا والمواضيع بل تختص بالتوجه بكل دقة نحو هدف محدد قابل للإعادة الصياغة، والمشترك بين هذه الانتاجات الجماعية كونها ترتبط دائما بالماورائيات وتزرع قيما ومفاهيم خاصة حول الموت والخوف والشجاعة وإلى غير ذلك من المفاهيم التي تتخذ صبغة وصفة أخلاقية.

ومن هنا تتولد الحاجة إلى الخيال في التربية الجماعية حيث تحضر الحكاية والمثل والرواية الشفهية حول أماكن طبيعية أو ظواهر خاصة أو عادات اجتماعية معينة لكي تقدم الرشد والنموذج، وتتشغل على عملية التوجيه والاعانة في تحصيل الفهم وتقديم نوع من الخدمة الاجتماعية بطريقة فنية إبداعية.

والحاصل أن الخيال باعتباره إنتاج غير مقيد، مرن، دينامي، قابل لتجديد، له وظائف ومناهج وأساليب، فإن الغاية التربوية حاضرة بشكل قوي ضمنه، كما أن هذه الوظيفة تلعب دور بناء فرد حاملا للقيم وأفكار الجماعة بطريقة رمزية قابلة للتأقلم مع حاجاته وتطلعاته الفردية، ومستعدة لتكيف مع مستواه العلمي والمعرفي، كما يمكن صياغتها مرة أخرى من خلال مهارة التحليل والتأويل، وبذلك ينجح الخيال الشعبي في تضمين هذا الفرد ضمن المشروع الثقافي الجماعي.[5]

إذا كان الخيال الشعبي يمتلك هذا الوعي التربوي، فلما لا يتم توظيف إنتاجات المخيلة الشعبية كوسيلة بيداغوجية؟ وهل يمكن استثمار المضامين الخاصة بالخيال الشعبي ضمن المشروع البيداغوجي؟

2. الوظائف البيداغوجية للمخيلة الشعبية

تلعب المخيلة الشعبية ضمن المجال الاجتماعي الثقافي مجموعة من الوظائف وتعزز مجموعة من الممارسات وترسخ في ذهنية الفرد والجماعة مجموعة من القيم والأفكار وتقدم بدائل منهجية عن مهارة التحليل والنقاش والتركيب والاستنتاج، لكن من بين الوظائف الأساسية للخيال الشعبي هي الوظيفة التربوية[6]، حيث يحضر هذا الإنتاج الجماعي كعمل يتوسل به الحفاظ على مشروع الجماعة الثقافي وكذا تلبية حاجات الفرد الفكرية من الرغبة في الفهم والاستطلاع وتجاوز الممكن والمحدود نحو مجال أرحب يستثمر مختلف التأويلات ويقبل مختلف الاعتراضات حيث لا قيود ولا قواعد فقط المجال مفتوح للتأويل وإعادة التأويل.

وبهذا فإن الوظيفة البيداغوجية للخيال الشعبي أساسية ومركزية وتحضر كعنصر استراتيجي أثناء ممارسة هذا النوع من التفكير، سواء بطريقة منظمة أو بكيفية تلقائية، بل يمكن القول بأن الوظيفة الأساسية للإنتاجات المرتبطة بالخيال الشعبي هي وظيفة تربوية، خاصة عندما نتأمل الجانب الأخلاقي والقيمي والجمالي لها.

إن جل الثقافات تستثمر إنتاجها الثقافي لأجل الغاية البيداغوجية باعتبار أن هذه الغاية تسمح بإعادة إنتاج الثقافة من جهة كما أنها تضمن استمرار الهوية الجماعية من جهة، وقد استثمرت مجموعة من الشعوب عناصر الخيال الشعبي من حكاية ورقص ومختلف الفنون ذات الطبيعة المادية والرمزية وذات القواعد الجلية أو السرد الشفوي إنتاجها الثقافي في القيام بعملية التنشئة الاجتماعية بالمعنى الشامل،

إذ لعبت الأنماط الفنية ومازالت كذلك دورا بيداغوجي مهم قائم على بناء التمثل الفكري وترسيخ البعد الرمزي في ذهنية المتلقي مما شكل الوعي الثقافي الجماعي ومما أكد على ضرورة انخراط الفرد في مجال الاجتماعي في تفاعل مع مختلف المؤسسات بكل فاعلية وديناميه.[7]

وبالعودة إلى البنية الثقافية لمختلف الشعوب نجد هاجس التربية حاضرا بشكل قوي في مختلف اللحظات، لذلك فإن المخيلة الشعبية اجتهدت في بناء مشروع بيداغوجي لها صالح للتعديل وقابل لإعادة الإدماج بالاضافة إلى المرونة التي تعزز فكرة إعادة الاستثمار عند الحاجة إليه، وقد تعددت الوظائف البيداغوجية للمخيلة الشعبية حسب الغاية والحاجة التي ترتبط بفكرة الفرد ثم بمشروع الجماعة، لكن بالمجمل يتم توظيف المخيال الشعبي لتركيز على الجانب القيمي والأخلاقي وعلى البعد الجمالي في سلوك الإنسان سواء تجاه ذاته أو تجاه مجال العيش وهو ما جعل من عملية التخيل تتخذ بعد جماعيا تتفاعل فيه معطيات الزمان والمكان والغاية والمقصد، ومن بين ذلك المقاصد التربوية والتي يمكن تحديدها من خلال الوظائف التالية:

- **الوظيفة الادماجية**: حيث تعمل هذه الانتاجات الثقافية الخيالية على دمج الفرد ضمن مشروع وفكر الجماعة واكتساب ما يعرف بالهوية الثقافية التي تغذي عملية الفكر وتتحول إلى مرجع أصيل يعتمد عليه في تقديم الحكم تجاه الأشياء، وتبدأ عملية الادماج الثقافي من خلال الانتاجات الخيالية في سن مبكر من خلال توظيف عناصر الخوف والاثارة والتشويق والحاجة إلى إقامة صورة ذهنية حول طبيعة الأشياء، كما أنها تساهم في تبسيط وتقديم بعض المفاهيم المجردة المرتبطة بعالم الغيب أو بمجال الخيال المحض، إن هذه الوظيفة للخيال الشعبي المتمثل في الحكاية والرواية والطقوسية... وعناصر أخرى تشكل وسيلة للعبور كما تمثل بالنسبة للفرد القواعد الأولية للممارسة عملية الفكر، وبالتالي يوظف المجتمع من خلال الخيال والتخيل عنصر ربط بين الفرد وبين مشروع الجماعة[8].

- **الوظيفة الجمالية**: حيث تقدم عناصر المخيال مقومات تذوق الجمال وفهم دلالته والوقوف عند أبعاده الرمزية و بالتالي اكتساب ملكة الذوق والحكم، فمن خلال ما تم تخيله تشكلت الصورة الأولى لدلالة الجمال، حتى أنه يمكن القول بأن الجمال الحقيقي كاد أن يكون هو الجمال الخيالي، الصورة النفسية التي ارتبطت بعملية البناء السيكولوجي للفرد قدمت وعيا حقيقا حول معايير الحكم الجمالي والاستمتاع الذوقي بالأشياء، وبواسطة الوظائف البيداغوجية للخيال استطاع الإنسان أن يكون لذاته قواعد ومعايير يستند عليها لتقديم الحكم العقلي على الجميل والجليل، وهنا لعبت المخيلة دورا في تقريب معنى الجمال وفي منح هذا المعنى دلالة ثقافية ترتبط بالدين والعلم ومجال الانتماء (المدينة / القبيلة...)، كما أنها ساهمت في السماح لذات الفرد بأن تشكل نوعا من المعرفة الجمالية تجاه الأشياء سواء في دلالتها الفردية الخاصة أو في الدلالة الجماعية العامة.

- **الوظيفة الأخلاقية**: من بين الاستخدامات الأساسية لعملية الإنتاج الخيالي تقديم قواعد وظوابط ونماذج أخلاقية، وبالتالي يمكن الحديث عن الوظيفة الأخلاقية كالية وكغاية، إذ أن الأخلاق بتمثلاتها الفكرية والفعلية ترتبط بمشروع الإنتاج الخيالي، إذ يكتسب الفرد دلالة حول بعض المفاهيم كالشجاعة والتسامح والكرم والحذر... من خلال الخيال والتخيل في اللحظة الأولية من خلال حكاية الجدة أو ممارسات الجماعة أو التمثلات الأولية اللحظية حول التدين والعرف والعادات والتقاليد أو من خلال التصور الخيالي الذي يتلقاه في اللحظة الأولى حول بعض هذه الأخلاق، إن الـ أخلاق تحضر بشكل قوي ضمن عناصر التفكير الخيالي وتتطور عبر مسار الزمان وتستفيد من التغيرات والتطورات الرقمية والتكنولوجية، فإذ حصل أن الأخلاق كانت حاضرة ضمن الأسطورة كانتاج خيالي و وتطورت بعد ذلك للتخذ إنتاجات أخرى، فإنها في عصرنا الحالي تستفيد من التطور الرقمي وتقدم خدمات ضمنية داخل مجال الصورة كالرسوم المتحركة والقصص المصورة، التي تعزز هذا الجانب الأخلاقي في ضمير الفرد وتقدم له دلالة حول ما ينبغي التحلي به من الأخلاق فكرا وعملا .[9]

إن هذه الوظائف تتفاعل مع بعضها البعض لتؤسس لنوع من الدينامية التي تساهم في بناء شخصية الفرد وفي تكوين الملامح الأساسية له

حول ذاته وحول العالم من حوله كما أنها تعزز المشترك وتخدم الجماعي ومن هنا يمكن الاقرار بأن الانتاجات الخيالية الشعبية الجماعية تقدم خدمة بيداغوجية لكل قاصد لعملية التربية، كما أن هذه الخدمة لا تقتصر على فرد دون أخرى ولا تعرف ملامح محددة ولا تخجل من السن ومن الضوابط، بل إنها تتمتع بنوع من المرونة مما يسمح لها بالتكيف مع مختلف العناصر الثقافية وتقديم خدمة لمختلف الشرائح الاجتماعية بصرف النظر عن معايير محددة تراقب السن أو الجنس أو الطبقة الاجتماعية، وهذا التفاعل الدينامي تفاعل مرن قابل للتعديل وتغير ومستعد لعملية الاستثمار. وهو ما يفتح لنا المجال لتفكير في استثمار الانتاج الخيالي الشعبي في مجال الممارسة البيداغوجية المدرسية.[10]

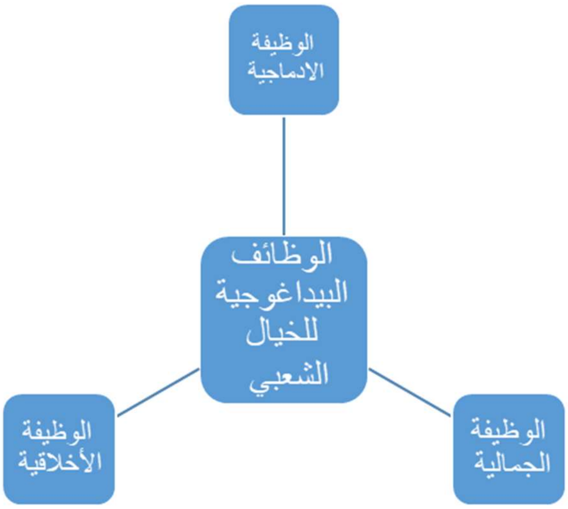

3 . الاستثمار البيداغوجي للخيال الشعبي في الممارسة المدرسية

إذا كان الخيال الشعبي يلعب دورا تربوي وبيداغوجي في المجال الاجتماعي والثقافي و يتعزز وجوده بوجود هذه الغاية وإن بشكل ضمني، فلما لا يتم استثمار هذا الإنتاج الخيالي في المجال البيداغوجي المفكر فيه من خلال إدماج عناصر الإنتاج الخيالي الشعبي الثقافي ضمن الممارسة المدرسية والصفية بشكل منهجي عقلاني ومفكر فيه، بحيث أن هذه الاستثمار قد يكون من خلال جهة المقاربة وسيلة لربح الجهد وكذا لتحقيق الكفايات الأساسية الكامنة وراء عملية التعليم والتعلم دون اقحام هذا المتعلم في أزمة فكرية خاصة أو في قلق يرتبط بالهوية وبالانتماء الثقافي الفردي والجماعي[11]، خاصة أن ذلك الإنتاج الخيالي شكل بالنسبة له ضمن البعد النفسي اللبنة الأولى لعملية التفكير والحكم، ومن جهة أخرى يمكن أن يشكل اللبنة الأولى أيضا لعملية التعلم واكتساب المعرفة، يتطلب استثمار الانتاج الخيالي الثقافي ضمن الممارسة البيداغوجية نوعا من الوعي بأهمية هذا النوع من الانتاج الثقافي ودراسته دراسة عميقة ليس من جانب الفلكلوري فقط بل من جانب ما يتضمن من أبعاد وقيم ومناهج ووسائل وأدوات و ما ينطوي عليه من لغة رمزية يمكن توظيفها في مختلف الأبعاد[12].

عطفا على أن المجال الفني قد استفاد بشكل قوي من خلال استثمار الإنتاج الخيالي الشعبي في الممارسة الفنية سواء في مجال المسرح أو الصناعة السينمائية وقد عاد عليه هذا الاستثمار بنوع من التقدم في الأداء في خدمة المقاصد الفنية، كما أن العلوم الدقيقة ركزت في الفترة المعاصرة بشكل قوي على أهمية الخيال العلمي في بناء النظريات العلمية المعاصرة في تقديم تفسير جديد لقضايا علمية كانت لعهد قريب تعتبر مركبة وتحتاج إلى جهد فكري خاص.

بينما في المجال التربوي هناك نوع من الغياب لاستثمار الإنتاج الخيالي في ممارسة الأنشطة التعليمية التعلمية بشكل صريح، مع العلم أن الممارسة البيداغوجية تستحضر بعض الانتاجات الخيالية (القصة، الرواية، حكاية شعبية، أمثلة...) كدعامات ديداكتيكية، أي كوسيلة يرجى من خلالها تحقيق الكفايات وراء عملية التعلم [13].

لكن واقع الحال يفرض أن يمتلك المدرس(ة) القدرة على قراءة المجال الاجتماعي الذي يمارس فيه عملية التدريس وأن ينهل من قواعده الثقافية واللغوية والرمزية الشعبية وأن يجتهد في إقحامها ضمن أنشطته الصفية بشكل يعزز وجودها من جهة ويجعل المتعلم ينفتح على استثمارها بكيفية جديدة من جهة أخرى، وهو ما لا يؤسس لنوع من التناقض بين مجال العيش ومجال التعلم وبين كفايات التعلم ومقاصد الجماعة التي ينتمي إليها المتعلم، ومن هنا نستحضر دائما ضرورة إدارج أنثروبولوجيا الثقافة والتربية ضمن عدة تكوين المدرسين، لأن المعرفة الأنثروبولوجيا تسمح للمدرس بأن ينفتح على عالم المتعلم الذهني والثقافي والجماعي المجالي، وتسمح له أيضا بإقامة نوع من التعاقد البيداغوجي المرن مع المتعلم تعاقد مبني على استثمار ما تلقاه ضمن الانتاج الخيالي وما أصبح يمتلكه على أساس أنه هوية ثقافية، وقد نجحت بعض الدول في توظيف ثقافتها الشعبية [14] ضمن سلسلة التعلم المدرسي فكان لذلك اثر مهم على فاعلية التعلم ومثال ذلك النموذج الهندي الذي نجح من خلال هذه المقاربة في تبسيط عمليات التعلم وفي تقديم الأساسيات وراء عملية التعليم، كتعلم الأعداد والحروف وأسماء الأشياء، خاصة أن المجال الهندي هو مجال إنتاج خيالي بشكل قوي سواء ضمن دائرة الممارسة اليومية (الأسطورة والمعتقد [15])أو ضمن دائرة الإنتاج الفني والصناعة السينمائية.

إن الممارسة البيداغوجية هي ممارسة هادفة ومعلقنة ومنهجية، وبذلك فإن عملية النقل البيداغوجي والديداكتيكي للمعرفة تحتاج دائما إلى عملية الوساطة لكي تتغير طبيعة المعرفة من المعرفة العالمة إلى المعرفة المقيدة [16]، وهنا يمكن استثمار الخيال الشعبي كمعرفة حاملة لإقامة عملية الوساطة، ومن ذلك يمكن استثمار الخيال الشعبي ضمن الممارسة البيداغوجية المدرسية على الشكل التالي:

استثمار منجهي: من خلال الاعتماد على العناصر التي تقدمها الانتاجات الخيالية الشعبية ضمن سلسلة الأنشطة الصفية مع ضرورة الوعي بالوظائف البيداغوجية لهذه الإنتاجات، فمن البيداغوجيات المعاصرة والأساسية نجد بيداغوجيا اللعب ومن هنا يمكن الاجتهاد في اقحام بعض الألعاب الشعبية ذات الطبيعة الرمزية والمرتبطة بالانتاج الجماعي ضمن الممارسة الصفية وهذا مما يعزز القابلية لتعلم عند المتعلمين ولا يشكل حرج في المشاركة وفي الانخراط بكل فاعلية ومما يحقق أهداف التعلم بشكل يوازي بين مرام الكفايات ومجال الانتماء الفردي والثقافي. [17]

كما يمكن أيضا التوسل بالإنتاج الخيالي ضمن مجال القصة والأمثلة ذات الطبيعة المجالية القريبة من مجال التعلم ومن الوسط المدرسي في تقديم بعض المضامين وتقريب بعض المعطيات الأساسية التي تحقق كفايات التعلم ولو بشكل عرضي، إذ أن هذه العملية تعزز قيمة الإنتاج الثقافي وتحفز على عملية التعلم بكل فاعلية وتعزز دينامية الوسط المدرسي في خدمة ماهو ثقافي وفي بناء مشروع اجتماعي متكامل.

إن توظيف الخيال الشعبية كدعامة بيداغوجية في الجانب المنهجي يعزز بشكل قوي علاقة المتعلم بالوسط المدرسي ويجعل من عملية النقل البيداغوجي وديداكتيكي أكثر دقة وبساطة واستجابة لمتطلبات المتعلم، خاصة وأنه بعملية الاستثمار هذه نلغي القطيعة الابستمولوجية في ذهنية المتعلم بين مادة المعرفة ومجال المعرفة والذات العارفة، عطفا على أن جل المواد الدراسية تجعل من صميم مقاصدها تحقيق الكفاية الثقافية لدى المتعلم، وقد يحصل أن تعزز هذه الكفاية عندما يتم توظيف عناصر قريبة من ذهنية المتعلم الثقافية وتستجيب لهويته وخصوصيته المجالية، فكثير هي الانتاجات الشعبية المتخيلة التي تقدم أغراضا تربوية وتشحد الهمم وتعزز من مهارة التفكير والعاطفة لدى المتلقي، بل إن كثير من الوظائف الشعبية تركز على جعل المتلقي يدرك في ماهية ذاته قدرته على الفهم والتحليل والمناقشة والتركيب، بل يتجاوز الأمر ذلك نحو عملية التأويل والإبداع.

إن عملية اقحام الانتاجات الشعبية في ثقافة المتعلم وضمن فاعلية التربية داخل الوسط المدرسي والأنشطة الصفية، يرجع بالأساس إلى فكرة الوعي بقيمة الإنتاج الشعبي خاصة على مستوى الخيال، إذ أن مهارة الخيال العلمي لا تتفوق على الصورة الشعرية وعلى الصورة الذهنية التي تؤسس للانطباع تجاه الأشياء وتسمح ببناء شخصية الأفراد وتقديم تأويلا للمجال، فالخيال هو الوظيفة الأكثر أمانا التي تسمح للإنسان بأن يتجاوز ذاته وأن يعيش لحظة خاصة بصورة خاصة وبقدرة ذهنية خاصة[18]، وقد تبين في الأوساط التربوية، خاصة المدارس الابتدائية بأن جل المتعلمين أصبحت قدرتهم على التخيل شبه ضئيلة ويعود ذلك إلى سيادة الصورة الجاهزة بواسطة الأدوات الرقمية والوسائط التكنولوجية.

إن حكاية الجدة التي تسترسل فيها حفظا وإدماجا وإنتاجا لا تحيد عن المقاصد التربوية، إذ تعالج جانبا قيميا أساسيا مضمر داخل متن الحكاية، كضرورة اليقظة و التنبه وطاعة الوالدين والاحترام والصدق... لكن في الجانب الأخر تعزز لحظة نفسية كالشعور بالفخر أو الذنب أو الندم أو الخوف... وتسمح للمتلقي بأن يشكل وعيا لحظي وصورة خيالية خاصة عن ظواهر طبيعية أو مشاهد إنسانية أو أشياء ميتافيزيقية، وإذا كانت الحكاية كنموذج للإنتاج الخيالي الشعبي تؤدي هذه المقاصد فإنها تتضمن في صميم ما تعبر عنه غاية منهجية[19]، ولطالما واجه المدرسون خاصة الجدد نوع من القلق تجاه تقريب بعض المعطيات أو تبسيط بعض المفاهيم المجردة للمتعلم وتحير أمرهم في نوعية التوظيف البيداغوجي الذي يليق أو فيما يتوسل به للأجل تمرير هذه المعرفة وتحقيق هذه الكفاية. ومن هنا فإن عملية استثمار ما يمتلكه المتعلم وما يقدمه المجتمع وما تنسجه الثقافة قد يعالج هذه العراقيل ويعزز فكرة التعلم وييسط مهارة التدريس [20].

وعطفا عليه فإن توظيف ما انتجه الخيال الشعبي بطريقة منهجية ضمن الممارسة البيداغوجية يساهم بشكل فاعل في خدمة عملية التعلم وفي خدمة الثقافة والمجتمع وفي تعزيز علاقة الفرد بمجال التعلم ومضامين المعرفة، كما يسمح بتوظيف الثقافة الشعبية ضمن الممارسة العلمية.

استثمار معرفي: يتحدد نوع هذا الاستثمار في القدرة على تحويل الثقافة الشعبية إلى ثقافة عالمة والخروج من دائرة الإنتاج الحالم نحو التوظيف العالم لهذه الإنتاجات، وبذلك يتشكل لدى المتعلم نوع من الوعي بماهية الثقافة الشعبية وبخصوصيتها الرمزية وبقدرتها على إنتاج العلم والمعرفة ومواكبة العصر والقضايا التي تهم الفرد والمجتمع [21]، لكن هذا الاعتبار يفرض بداية ضرورة تعزيز المهارة البيداغوجية في تنقيح وتلقيح ما تم إنتاجه شعبويا وثقافيا، ذلك أن عملية التأويل والحشو قد تخرج بعض الإبداعات البشرية عن مقاصدها الصحيحة والصريحة نحو تمثل رمزي سلبي خاطئ لها، كما أن اعتبار الخيال الشعبي وما انتجه هو مضمون معرفي اعتبار يرقى بهذه الإنتاجات من مستوى بسيط نحو مستوى مجرد ويحلها منها قضية فكرية حقيقة ترقى إلى مستوى النقاش العلمي، ويحيد عن اعتبار أن ما تقدمه الثقافة هو مجرد فكرة لا غير وأن حدود الاستثمار لا ينبغي أن تجاوز الغاية الفنية والإبداعية، لكن في الواقع الحال قد تشكل هذه الانتاجات الشعبية مجالا خصبا خاصا لبناء المعرفة، بل ولتعزيز القدرة على الحفاظ على هذه المعرفة ضمن ما يعرف بتراكم الخبرة البشرية والتي تسمح بتجاوز الزمان وتخفيض التكاليف ونشر الوعي بطريقة سلسلة ومرنة[22].

ولذلك من غير المعيب أن تحضر بعض مضامين الثقافة وبعض الأنشطة الثقافية ضمن البرامج والمناهج الدراسية كفاعلية أساسية تقدم المعرفة أو تعزز القدرة على اكتسابها، بل من المفترض أن عملية التفكير الإجرائي في بناء المعرفة المبرمجة داخل سيرورة البرامج والمناهج الدراسية ينبغي أن تستحضر هذا البعد وأن تستثمر بلا خجل ولا وجل المضامين الشعبية ضمن عملية النقل المعرفي، فلا خالف بين ما يريده المجتمع وما ترمز له الثقافة وما تسطره البرامج والمناهج.

من نماذج عملية الاستثمار المعرفي لما انتجه الخيال الشعبي ضمن الثقافة المغربية استحضار بعض الأنماط الفنية كالملحون والأداء الفني والرقص الجماعي ضمن بعض القضايا أو حتى في شاكلت وضعية مشكلة[23]، فمثلا قد تساعد عملية الفسيفساء الخاصة بالزليج المغربي على معالجة وتعلم بعض القضايا الرياضية في علوم المهندس وضمن حساب المتتاليات العددية وضمن دراسة التفاعلات الفيزيائية

والكميائية للمواد... وقس على ذلك مجموعة من المظاهر الثقافية القائمة على الخيال الفرد أو الجماعة والتي هي مستعدة لاتخاذ جانب معرفي يمكن أن يساهم في تطوير العلم وفي تعزيز التعلم وفي بناء مشروع مدرسي متكامل ينصف هوية الفرد ويسمح بمد جسور اللقاء بين المتداول داخل الحقل الشعبي اليومي وبين مجال الدراسة والمعرفة والتعلم.

إن إدماج المتخيل الشعبي ضمن مضامين المعرفة يسمح بشكل قوي ببناء قدرة الذات العارفة على اكتشاف بواطنيها، بل تجاوز ذلك نحو الانخراط الفاعل والحيوي ضمن سلسلة الإنتاج العلمي، إذ يمتلك المتعلم بواسطة ذلك فكرة واضحة مفادها أن المعرفة العلمية بسيطة لكنها مركبة ويحصل من خلال ذلك كفايات التعلم سواء في بعدها الثقافي أو التواصلي أو الاستراتيجي أو المنهجي المعرفي[24]، كما يعزز ذلك قدرة الدماغ على القيام بوظائفها الحيوية القائمة على الإبداع والتخيل وحفظ المعرفة بشكل بسيط لأنه يتبين للمتعلم بأن المعرفة العلمية تعالج بشكل واضح قضايا إنسانية يومية سواء فيها بعدها الفكري أو النفسي أو الاجتماعي أو الأخلاقي القيمي.

وعلى هذا الأساس فإن إنتاجات الخيال الشعبي ينبغي أن تجد المكان المناسب لها ضمن البرامج والمناهج الدراسية وينبغي أن تتمتع بالفاعلية و الحيوية ضمن المقررات الدراسية، بالشكل الذي يحقق استجابة لعالم المعرفة وخدمة للمجتمع ويسمح بتجاوز التميز القائم بين اليومي والعلمي وبين الشعبي والمدرسي، ولا ينبغي أن ننسى بأن سواء المعرفة ضمن ارتبط بسؤال الثقافة والمجتمع دون أي تعالي أو ترفع، و بأن الوعي بأهمية استثمار الثقافة الشعبية ضمن الممارسة التربوية والعلمية هو وعي قائم على فكرة أن المدرسة في خدمة المجتمع وأن المجتمع في خدمة المدرسة. [25]

الخاتمة

يظهر من خلال ما تقدم بأن الممارسة البيداغوجية الحديثة في ظل زمن الرقمنة والذكاء الصناعي في حاجة ماسة إلى تنويع طبيعة الممارسة بشكل فاعل وقوي، يضمن تأسيس صورة جديدة حول فكرة التربية ويجدد من وسائل الاستثمار الناجع لمختلف الوسائل خدمة للمعرفة وللعلم، ويتيح الامكانية أمام جعل عملية التدريس عملية مرنة تستجيب لتطلعات دون هدم للأسس والقواعد الاجتماعية، ومن ذلك فالممارسة البيداغوجية أصبحت في حاجة ملحة إلى الانفتاح على مختلف المضامين والمظاهر بما في ذلك الثقافة الشعبية، باعتبار أن الغاية التربوية في بعدها الأخلاقي دائما واحدة و بأن الفرد غير قابل لتجزأ بين هويته الثقافية وهوية المدرسة، بل على العكس إنه مستعد لإقامة جسور التواصل والانفتاح ولتقديم خبرته الاجتماعية والثقافية في سبيل بناء صورة جديدة حول التربية والعلم والثقافة، صورة تعزز من قيمة البسيط اليومي بسحره الرمزي والإبداعي ومن المركب العلمي بطموحه المعرفي والمنهجي، وبذلك ننجح في جعل ما انتجه الإنسان في خدمة الإنسان.

الهوامش:

[1] ديل ايكلمان، انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ترجمة نخبة من المترجمين، تحرير يونس الوكيلي، مومنون بلاحدود، ص222221.

[2] الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، عالم المعرفة بيروت لبنان، ص 33 38.

[3] الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مكتبة المعارف بيروت لبنان، ص 3533.

[4] محمد حسن العمايرة، أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية، دار المسيرة، ص 110.100.

[5] الزبير مهداد، من الثقافة المغربية الأمازيغية، افريقيا الشرق، 2022ص 43 .45.

[6] ديل أيكلمان، انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ترجمة نخبة من المترجمين، تحرير يونس الوكيلي، مؤمنون بلا حدود، ص 200.

[7] عبد الحق منصف، رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، افريقيا الشرق، الدرالبيضاء ص50.

[8] عبد العزيز الأهواني، الخيال الشعبي في الأدب العربي، عالم التراث، السلسلة الرابعة، ص65.60.

[9] عبد الحق منصف، رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، افريقيا الشرق، الدار البيضاء2007، ص66.

[10] محمد حسن العمايرة، أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية، دار المسيرة، ص77.75.

[11] ديل ايكلمان، انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ترجمة نخبة من المترجمين، تحرير يونس الوكيلي، مؤمنون بلا حدود ص 149

[12] محمد حسن العمايرة، أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية، دار المسيرة، ص 80.

[13] عبد الحق منصف، رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المغربية، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2007، ص66.

[14] الزبير مهداد، من الثقافة المغربية الأمازيغية، تفريقيا الشرق، 2022 ص79.78.

[15] ديل ايكلمان، انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ترجمة نخبة من المترجمين، تحرير يونس الوكيلي، مؤمنون بلا حدود ص 174.

[16] محمد حسن العمايرة، أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية والفلسفية، دار المسيرة ص36.

[17] عبد الحق منصف، رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2007، ص5250.

[18] عبد العزيز الأهواني، الخيال الشعبي في الأدب العربي، عالم التراث، السلسلة الرابعة، ص70.

[19] الزبير مهداد، من الثقافة المغربية الأمازيغية، افريقيا الشرق 2022، ص 85.83.

[20] عبد الحق منصف رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2007، ص 60.

[21] الزبير مهداد، من الثقافة المغربية الأمازيغية، افريقيا الشرق 2022، ص 66 68.

[22] ديل ايكلمان، انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ترجمة نخبة من المترجمين، تحرير يونس الوكيلي، مؤمنون بلا حدود، ص 182.

[23] عبد الحق منصف، رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2007، ص77.

[24] ديل ايكلمان، انثروبولوجيا المجتمعات الإسلامية، ترجمة نخبة من المترجمين، تحرير يونس الوكيلي، مؤمنون بلا حدود، ص217.

[25] عبد الحق منصف، رهانات البيداغوجيا المعاصرة، دراسة في قضايا التعلم والثقافة المدرسية، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2007، ص89.88.